٤ – الاقتداء البشريّ بالفعل الإلهي

هذا التعاون البشريّ الضروريّ ، على أنواعه ، هو المكان الدائم لهذا الحوار الذي يباشره المؤمنون متكاتفين مع جميع الناس ذوي النيّة الصادقة ، وان كانوا من الملحدين أو الكافرين. فعليهم أن يقولوا ويفعلوا الكثير معًا ، سواء أكان الأمر متعلّقًا بإكمال الخليقة ، أم بخدمة البشر أم بالتقدّم والازدهار في المجتمع البشريّ. إنهم جميعًا مدعوّون الى المشاركة في هذا التعاون اليوميّ بأنواعه ، ولهم فيه مهمّة يضطلعون بها ، لأنهم يمثّلون جميعًا جزءًا لا يستهان به من الاختبار البشريّ والعمل الدنيويّ. وفي الواقع ما يقتضي المسيحيّين والمسلمين مثلَ هذا الالتزام لخدمة إخوانهم إنّما هو إيمانهم بالله ، إذ لكل إنسان صِلات قويّة بالله. فالمؤمنون مدعوّون بعملهم عينه الى كشف ذواتهم لإخوانهم في البشريّة ، لأن عملهم لا يخلو من تشابه خفيّ مع فعل الله نفسه.

المسيحيّون مدعوّون دائمًا إلى أن يزدادوا تلاؤمًا مع مثال يسوع المسيح الذي يتطلّب الكثير منهم إذ قال : «أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ وَصَلُّوا لِأَجْلِ الذِينَ يَضْطَهِدُونَكُمْ لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الذِي فِي السَّمَاوَاتِ ، فَإِنَّهُ يُطلِعُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالأَثَمَةِ... فَأَنْتُمْ إِذَنْ كُونُوا كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ هُوَ كَامِلٌ» (متى ٥، ٤٤–٤٨). والمسلمون يعلمون ، بعد الغزالي ، أنه قيل لهم : «تخلّقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات ، التي هي من صفات الإلهيّة ، من العلم والإحسان واللطف ، وإفاضة الخير والرحمة على الخَلْق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم الى الحقّ ، ومنعهم من الباطل» (احياء علوم الدين)(٣٨). وهكذا يقودهم العمل نفسه الى نوع من «تبادل الصفات» الذي يشيد به حديث من أجمل الأحاديث القدسيّة ، إذ يقول. «وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فاذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصر به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورِجْله التي يمشي بها (وفؤاده الذي يعقل به ، ولسانه الذي يتكلم به»)

فالمسيحيّون والمسلمون إذن ، بعملهم الذي يقومون به معًا ، يستطيعون أيضاً أن يجدّدوا اليوم الشهادة التي عليهم تأديتها عن الله نفسه ، ويعرضوا على رفقاء طريقهم سبيلاً جديدًا لاستطلاع سرّ الله وحقيقته. وفي الواقع اذا «اسْتَبَقُوا الخَيْرَاتِ» في خدمة الشباب والأطفال من كل الأعمار ، كما في خدمة المعوّقين والمرضى والمحتضرين ، واذا رفضوا الحروب والاختبارات القاتلة للناس ، فلأنّ الحياة عندهم نعمة من نعم الله ، ولأنهم يؤمنون بالله الحيّ الذي يحبّ الحياة ويريد أن تعطي كلّ ثمارها. وإذا قاوموا جميع أشكال التمييز والتفرقة (الجنسيّة أو العرقيّة أو الثقافيّة أو الدينيّة أو القوميّة) والاستئثار الأنانيّ بالخيرات الطبيعيّة (فرديًّا أو جماعيًّا) ، ليضمنوا للجميع من العدالة وتكافُؤ الفُرَص ما هو أفضل ، فلأنّ جميع خيرات الدنيا هي ، في نظرهم ، نعمة من نعم الله ، ولأنهم يؤمنون بالله العادل الكريم الذي يخلق بسَعَة ويعطي بسخاء.

وإذا ما دافعوا عن جميع الحرّيّات ليعرف الانسان ويبغي أن يكون مسؤولاً تجاه ضميره ، وتجاه إخوانه وربّه ، فلأن الحرّية في نظرهم نعمة من نعم الله ، ولأنهم يؤمنون بالله الحرّ «الَّذِي يَفْعَلُ ما يَشَاءُ» ، لأنه يحبّ الناس ويتلمّس جوابهم الحرّ. واذا أشادوا بالحوار سبيلاً لحلّ المنازعات ، وعملوا على تشييد مجتمع أكثر أخوّة وبالتالي تعدّديًا (على الصعيدين الوطنيّ والدوليّ) فلأن السلام والوحدة في التنوّع هما ، في نظرهم ، نعمة من نعم الله ، ولأنهم يؤمنون بالله الرحمان الرحيم ، الذي يغفر ويجمع ، ولا ييأس أبدًا من العصاة ولو كانوا أشدّ الناس عصيانًا لمشيئته. وبهذا نفسه ، يتمكّن المسيحيّون والمسلمون المتآلفون في العمل من أن يشهدوا معًا ، اليوم ، لما للخليقة الحاضرة من قيمة ، ولكرامة الإنسان الحقيقيّة ، ولعظمة الله السامية. أوَليست مشاركة كل منهم في أشكال هذا التعاون الانساني الضروريّ ، هي ، في الوقت عينه ، اقتداء بشريًّا بفعل الله وإظهارًا جزئيًّا له على عيون الناس أجمعين؟